نفسية الشعب المصري من أمثاله

للاستاذ عبد الجليل السيد حسن

من المعروف أن الأمثال خير معبر عن نفسية الأمة وأصدق مصور لروحها وأبلغ شيء في الدلالة على ما يجيش في صدور أبنائها وسبب ذلك واضح وهو أن الأمثـــال تنبع من صميم الأمة وتقتطع من روحها وإلا لما كان لها بقاء ولما استمر لها وجود ولما تدر لها أن تبقى حية على ممر الدهور كأنها بنت ساعتها وبدع زمانها وحده . وإن المثل ليقال ليعبر عن حالة من الحالات أو رأي من الآراء فإن لم تكن تلك الحالة حالة الشعب وذلك الرأي رأيه لما سار المثل بين بنيه مسير النار في الهشيم ، وإن مجموعة الأمثال لتكون نظرة الشعب الفلسفية للحياة وتبين على أي نحو من الأنحاء يتقبل الشعب الحياة وبأي منظار ينظر إلى الوجود ، ويؤيد ذلك أنا لا نعرف قائل المثل ، والمثل لا يشيع لأن فلانا قاله بل لأنه يصور حالة يرونها صادقة . أو يكفيهم مؤنة تمليل ما يريدون أن يكون

إنك إن أعطيتني أمثال أمة من الأمم أعطيتك صورة صادقة ترى فيها حالتها وحالة أبنائهـا ومقدار درجة رقيها أو انحطاطها ، وتلمس فيها حضارتها ومبلغ حظها من الحياة أو الموت . ولو أعطيتني صورة أمـة من الأمم وكشفت لي عن حضارتها ، فأنا زعيم لك إن لم أخبرك ما هي أمثال هـــذه الأمة بالضبط ، فلن أخطئ على الأقل ، في تبيين المعاني والأفكار التي تدور حولهـا أمثال هذه الأمة . فالأمثال مرآة الأمة التي تنعكس عليها حالتها وحضارتها

والشعب المصري عرف بحبه للفكاهة أو امتاز بالفكاهة والنكتة وبرز في هذا المضمار حتى أصبح ذلك الصق الأشياء به وأدلها عليه ، ومثل هذا الشعب لا بد أن يكون حظه من الأمثال موفورا فإن الجو الذي تقال فيه النكات أنسب الأجواء لضرب الأمثال ولنل في ذلك ما يفسر لنا ما نلحظه في الأمثال المصرية من روح الفكاهة

إن نتكلم عن الأمثال من ناحيتها البلاغية فقيمتها البلاغية معروفة ، وهناك من يعدها أم البلاغة ونهايتها ، كما قال إبراهيم النظام « يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة » ، بل سنتكلم عن قيمة المثل النفسية ومقدار دلالته على روح الشعب وإلى أي مدى يوصلنا إلى أغوار نفوس الشعوب . والأمثال العربية قديمة قدم اللغة العربية ، ولكن العامية لم تدخل مصر إلا بعد ذيوع العربية بين المصريين وتحولها لغة الشعب ، وحينئذ بدأت بعض الحكم العربية تدخل - متخذة قالبا سهلا — العامية ، ثم تهضم ويتمثل بهـا . ولسنا الآن في مجال بحث نشأة الأمثال العامية في مصر ، بل إننا لنكتفي بالقول بأن الأمثال التي سنقولها بعد والتي سنعرف منها جانبا من نفسية الشعب المصري قد نشأت وتكونت في عصور الظلام ، عصور الاستبداد التي أنشبت أظفارها في جسـد المصري فأقعسته عن الحكم ، وألصقته بالأرض يفلحها وبالماشية يسيمها ثم انتزعت من بين يديه ثمار غرسه ونتاج تربيته ، ولم تترك له إلا قشور ثمرته التي جناها وعظام ذبيحته التي رباها ، هـذه العصور المظلمة منذ المماليك والأتراك إلى ما قبل يومنا هذا بقليل

ولنأخذ الآن في تحليل نفسية الشعب المصري من أمثاله ، ولن نتناول الآن إلا ناحية واحـدة هي « الميل إلى الاستكانة والشعور بالدونية ، ومرجان روح اليأس والدعوة إلى الخنوع وعـدم الرغبة في الكفاح » ولست أدري هل هي فطرية — وأعوذ بالله أن تكون كذلك وإن التاريخ لينفي أن تكون فطرية ، أو مكتسبة ؟ وأكثر الظن أو الأسلم أن نقول « إنها مكتسبة اكتسبها الشعب نتيجة لعصور الطغيان والاستبداد بالأمر وإقصاء الحاكم الأجنبي عن الحكم أهل البلاد ووسمهم بأنهم فلاحون ولا يصلحون إلا لذلك فقط »

* * *

« اقعد يا أخي واسكت ، هي اليه بتطلع العالي » إن هـذا

المثل قد اتخذ من هذه الحقيقة الطبيعية برهانا يؤيد به مايريد أن يقوله من أن الكفاح والجهد لا يجدى . فإذا كان كذلك فلماذا لا تريح نفسك وتدع الأمور تجرى فى مجاريها؟ الا تجهد نفسك فى تغييرها فإنك ان تستطيع أن تبلغ ما تريد وان تستطيع أن تغير من حالك أو نظام الكون شيئا ، « ده ملك منظمه صاحبه » « ودع الأمور تجرى فى أعنتها ؛ وبت ليلك واضى النفس مطمئن الفؤاد ، يا له من قمر أحمق هذا الذى يحاول أن يقنع عاميا أن عليه أن لا ييأس وأن لا يقنط من روح الله ، وأن يكد حتى يبلغ مراتب العظماء ، فإنه لن يكون عنده إلا جاهلا لا يعلم أن « المية لا تطلع العالى » نعم إن الماء لا يطلع العالى وحده ، ولكنه يطلعه براقمات لا تحتاج إلا إلى جهد قليل ، وإن الماء لابد أن يطلع العالى إذا استطاع ماء قبله طلوعه وإن العظيم ما دام إنسانا وهو إنسان أيضاً فلا مستحيل هناك فى أن يصل إلى ما وصل إليه

« إن لفيت بلد يتعبد عجل حش وارمى له » ، « اللى يجوز أمى ، أقول له يا عمى » . فى هذين المثلين يتجلى الخنوع والخضوع والرضا بالمركز الساقل والوضع الدنئ والحكم الظالم والسكوت على الذل . وإن رائحة الدم والشحم الذى حرقه الظلم لتفوح من هذين المثلين حتى تزكم الأنوف ... فلا تحاول أن تبدل وضعاً من الأوضاع أو حتى تنتقد النظام الذى تحيا فى كنفه بل اعمل دأبك وابذل جهدك حتى لا تغيره ، وليس هذا فقط بل طاون على تثبيت بنيانه وتدعيم أركانه ، وساعد على ذلك أيضا حتى ولو كان يخالف عقيدتك ... حتى ولو كفرت ! فإن كنت مسلماً ورأيت قوما يعبدون العجل ، فلا تنههم عن المنكر أو الكفر ولا تأمرهم بالمعروف بل اعبد العجل معهم واطعمه مبالغة منك فى عبادتك . وأنت لا شك لا تحب أن تتزوج أمك غير أبيك وتأبى ذلك أشد الإباء وتنكره غاية الإنكار ، ولكن إذا تزوجت فارض بهذه الحال ولا تثر ولا تضق بل قرعينا وقل لزوج أمك ، هذا الذى تبغضه من أعماق قلبك « يا عماه »

« حط رأسك بين الروس واسكت » ، إذا ما دعا داع إلى تغيير وضع من الأوضاع أو أمر من الأمور السياسية ، جوبه بهذا المثل وسخر منه وقيل له « صه . فأنت لا ناقة لك فيها أى الدولة ولا جمل » « تروح فين يا صعلوك بين الملوك » وهذا المثل كله يأس وكله شعور بالدونية والصغار وبأن الدولة التى هى دولته شىء غريب عنه ، لا حق له فى التدخل فى شؤونها ، وعليه أن يستقيم وأن يرضخ للحكم كما استقام ورضخ إخوانه من ... النماج

وهناك مثل آخر يكاد يدل على تقديس الحاكم ومشروعية الظلم وهو ! وهو « ضرب الحاكم شرف » وهم يقصدون ضربه حتى ولو كان ظالماً ، فإن الذل والخضوع للحكام بلغ بهم أن يعدوا ضربهم شرفا ، وبلغ من وقاحة المضروب وجرأته وعدم قدرته على رد عادية الحاكم أن يعتبر ضربه شرفا ، أو أنه لما عمهم ضرب الحاكم وأذاه وهو شىء يسوؤهم بلا شك ، أرادوا أن يخففوا من وطأة الظلم بأن أقروه وجعلوه مشروعاً وبرروه ، وهذه حالة نفسية فإن الإنسان إذا لم يجد إلا السبئ رضى به وحسنه حتى يخفف من سوئه ، كالفقير يتمدح بفقره وينسب إليه كل خير ويلصق بالغنى كل نقيصة لأنه قد فاته . وكذلك الإنسان مضطر إلى التكيف مع ما يكره حتى ينقص من وطأة ألمه ، فهؤلاء جعلوا الظلم مشروعاً حتى يلطفوا من حدته

وليست كل الأمثال العامية تظهرنا على نواح سيئة من نفسية الشعب المصرى — بل إن هناك نواحى مشرقة مشرفة تطالعنا عليها هذه الأمثال رجو أن نوفق إلى إبرازها إن شاء الله .

عبد الجليل السيد حسن

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

فصول فى الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

وهو مجلدان :

المجلد الأول يقع فى حوالى ٥٠٠ صفحة وثمنه أربعون قرشا

المجلد الثانى يقع فى حوالى ٤٠٠ صفحة وثمنه أربعون قرشاً